الفصل التاسع

يوم في البلاط الملكي

يماثل اليوم في البلاط الملكي بقية الأيام! تلك حقيقة عن بلاط المملكة العربية السعودية، إذ يمر يوم ويحل آخر والعادات والأعمال اليومية المتكررة لا تتغير، تساير ما يتماشى مع النظام الشوري القديم لهذا البلد منذ أيام أسلافه، وكما يفرضه ابن سعود على نفسه في ظروف تشابه قليلاً الظروف التقليدية الدينية التي سادت أيام أجداده، وبما لا يتفق تماماً مع النظام الاقطاعي.

إن ابن سعود لم يحد يوماً عن اعتقاده أنه من واجب الملك أن يظل بابه مفتوحاً لرعيته لكيلا يتضرر أحد من عدم الوصول إليه أو إلى أعلى سلطة في الدولة، أو يهرب فرد من العدالة عند ارتكابه جريمة ضد مواطن آخر. وطيلة فترة حكم ابن سعود لم تغب عن عينه الحاجة للرقابة الصارمة على المسؤولين والولاة لكيلا يستغلوا سلطاتهم ونفوذهم ويصبحوا سادة على المواطنين. وكما قال ابن سعود نفسه في أكثر من مناسبة خلال الفترة التي يغطيها هذا الفصل: "أن الحاكم الذي يتولى أمر الناس ويحكمهم بالعدل ليس له ما يخشاه، أما الذي يتولى أمرهم ويحكمهم بقسوة وظلم وتجبّر فلن يأمن من الخوف البتة".

ونظام البلاط الملكي مقارنة بما كان عليه الحال قبل ثلاثة وثلاثين عاماً حين التقيت بابن سعود في إدارته لأول مرة، ولا جرم فلا أحد يخال أن نظام

الأمس البسيط يصلح ويفي بمتطلبات بلاط اليوم وأموره المتزايدة. غير أن المبادئ الأساسية لم تتغير، إذ ظلت أبواب ابن سعود مفتوحة لتسهيل الوصول لمن أراده من الرعية وتلبيته حاجياتهم، وكذلك فإن إجراءات البلاط التي ظلت تتعدل باستمرار تلبية لظروف عالم متغير احتفظت بموروث الأيام السالفة، وهذا ما كان يحيرني، كصفة بارزة في هذا البلاط الملكي.

إن ابن سعود كان رجل حكم وتقاليد وأعراف، وفيما عدا أوقات غاب فيها لوعكة طارئة، وهي فترات قليلة، فإنه لم يخلد للراحة. وكان يقف بنفسه على أداء وعمل ولاته وبصفة دائمة للتأكد من أن موظفيه وبطانته ومرافقيه وكل العاملين لديه يحكمون كما هو يحكم. ولقد أدهشني كثيراً كيف أنه بمحض اختياره دون ما حاجة إلى ذلك سوى إرادته الخاصة، كان قادراً على تحمل من حوله يوم بعد يوم وليلة إثر ليلة، وهم لا يفارقونه البتة، بل ولساعات وجلسات طوال دونما تغيير سوى ظهور وجه جديد في فترات متباعدة.

لم يكن هناك أخلص منه مع معاونيه وبطانته الذين جمعهم حوله واحتفظ بهم لسنوات طويلة، وكان بعضهم أعداء استطاع أن يكسبهم بالحكمة والعطف، وبعضهم مؤيدين أو معارضين لحلفاء الأمس، وبعضهم رفاق مخلصين منذ أيام الجهاد، قاسموه قدره وصبروا معه. لقد كانوا جمعًا مميزين خاصة في صيف عام ١٩٣٠م عندما كان البلاط بالطائف، وعندها كنت عضواً في هذا الجمع بحكم تمسكي بالإسلام وظللت هكذا منذ ذلك الحين.

كان الملك آنذاك في ذروة حكمه وعظمته وصحة بدنه، دؤوبًا في عمله أكثر من تلك الأيام التي كان يجابه فيها أموراً أكثر صعوبة، وظلّ أكثر تمسكًا بدينه وعقيدته، ولم يزل كذلك دون تردد، وكان ممتلئًا بالمرح، سريع الغضب، ولكنه سرعان ما يتراجع عن غضبه.

كانت حرب اليمن وشيكة على الأبواب، كما ظهرت ظلالها سلفًا، وكانت نتائجها سهلة التوقع. ورغم أنها لن تضيف شيئًا إلى الرقعة الوهابية، إلا أنها ستجعل آخر أعداء ابن سعود أصدقاء إلى الأبد.

حينها لم يكن هناك هم سوى غزلان ركبة لتشعل تلك الطاقة الجسمية، وحينها كنا سنذهب إلى آبار سمودة لقضاء ليلتين أو ثلاثة نجوب الصحراء من الفجر إلى الغسق نبحث عما تبقى من صيد أنهكه الأمراء. وكانت تلك تجربة لن أنساها أبدًا، إذ ركبت في سيارة الملك وكان السائق الهندي الجريء على عجلة القيادة وبجانبه الملك إلى اليمين وأنا ورئيس البدو خلفهما على مقاعد متحركة بجانب البنادق الاحتياطيه (من ذات الخمس طلقات ومن الدرجة الأولى). وكنا نعبئها ونقدمها للملك حال فراغ بندقيته. وكان معنا رئيس مجلس الملك والطبيب الذي يحمل معه الإسعافات الأولية وبعض كبار الموظفين، كلهم متزاحمون في المقاعد السبعة بسيارة مرسيدس من نوع السيارات السياحية. وكان حظًا وفوزاً عظيمًا أن ترى غزالة في الصحراء عن بعد وإن حظينا برؤية واحدة كنا نسرع بين الشجيرات بغض النظر عن طبيعة الأرض. وكان الويل للسائق إذا تمهّل لتجنب تل رملي أو صخرة في الطريق، إذ من واجبه التيقظ والحذر.

أذكر ذات مرة عندما كنا نسرع وسط شجيرات شوكية أن سقط فرع شجرة على رأسي كالمطرقة محدثًا بعض الدوار؛ ولكنه لم يصبني بشكل بالغ رغم أن رأسي ووجهي كانا مكشوفين. وتعجّب وانزعج رئيس مجلس الملك ولفت نظر الملك إلى ذلك فأوقف السيارة، فقلت لهم: "لا شيء... إنني لا أشعر بأي ألم" أجابني الملك: "لكنك تنزف والدم نجس" ولم يعلق أحد على ذلك. وتوقف القنص وهم ينزعون الشوك من وجهي وأتوا بالماء لتطهير الجرح. وفي مرة أخرى أفزعنا سربًا من الغزلان يتكون من نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر غزالاً كانت تستظل بين بعض الأشجار، فقفزت الغزلان وتشتت في شتى الجهات ونحن نطاردها والملك يصطادها الواحدة تلو الأخرى، وسيارة أخرى من خلفنا تلتقطها. لقد قمت بتوقيت العملية بساعة يدي فوجدت أنها لم تستغرق سوى خمسة عشر دقيقة لصيد السرب بكامله. ولقد ثبت أن غزلان سهل ركبة تمثل نوعًا جديداً من سلالة غزلان عُرفت لدى سلطات المتحف البريطاني "بغزال السعودية"، وكنت قد بعثت لهم برؤوس منها وجلود. ولابد من وجود الآلاف منها قبل ظهور السيارات وقلّما تراها الآن في الصحراء سهلة الاجتياز إذ إنها قد رحلت إلى المخابئ الصخرية أو إلى كثبان الربع الخالي والمناطق المشابهة.

ومن قبيل المصادفة أن النعام الذي اختفى منذ أمد بعيد في الجنوب اختفى أيضًا في الشمال بسبب مطاردته بالسيارات، والأمر كذلك بالنسبة لغزال المها في الشمال الذي اختفى رغم وجوده في بعض جيوب الربع الخالي. ومن المؤسف أن الحياة البرية في المملكة قد عانت من التقدّم والزحف المدني

كغيرها من دول العالم إذ لا يوجد سبب يجعلنا نعتقد بأن الحياة البرية ستظل كما كانت، وهناك دول تسن القوانين للحفاظ على الحياة البرية وهو ما لم يحدث في المملكة بعد[1].

في الطائف كما هو الحال في كل أرجاء مملكة ابن سعود يحسب اليوم من الغروب إلى الغروب، ينتج عن ذلك اختلاف في التوقيت المحلي في المملكة من مكان لآخر، فيما عدا بعض الأوقات التي لا تتجاوز العشرين يوماً في شهر يونيه/ يوليو وعشرة أيام من نوفمبر في السنة حيث يصبح اليوم أربعة وعشرين ساعة أو أقل بدقيقة أو نحوها حسب الموسم. ويطول النهار من منتصف ديسمبر حتى منتصف يونيه ويقصر في النصف الآخر من السنة، مع اختلاف نسبي بين المناطق حسب خطوط العرض. وعليه فاليوم الذي يبدأ بغروب الشمس متروك للسكان لتحديد بدايته، وهذا يختلف من مكان لآخر حسب المنطقة والتعامل بالساعات لم يكن أمراً ملحوظاً في هذه الأيام. وتتباين أوقات الغروب والزوال في كل منطقة، وتلك كانت سمات التوقيت في المملكة.

وخلال الأيام التي أمضيتها في إعداد هذا الكتاب وقعت في الطائف قصة لها دلالة دينية مهمة، حيث نزل بعض البدو من آفاق نجد الفسيحة بقرب قصر الملك على مشارف جبال الطائف ورفعوا الأذان لصلاة المغرب قبل غروب الشمس التي لم تكد تختفي خلف الجبال، وكان ذلك قبيل نحو

(١) إن هذا الأمر كان وقت تأليف الكتاب، أما الآن فإن هناك قوانين للمحافظة على هذه الثروة المهمة.

خمسة دقائق من غروبها، ببراءتهم وعدم وجود ساعة لضبط الوقت. وزاد الأمر سوءاً حين رفعت الإقامة بنحو نصف ساعة قبل موعدها. وقع ذلك على آذان الملك وانزعج له كثيراً، لا لأنهم فعلوا ذلك بالخطأ. ولكن لأن صلاتهم قبل الوقت لا تصح، عرض الأمر في الجلسة العامة وبعث بالإمام إلى معسكر البدو وطلب منه مدارستهم عن أوقات الصلاة ودلالاتها وإعادة صلاتهم. لقد شهدت تلك الأيام حرصاً شديداً على مواقيت الصلاة نتيجة لتجديد الحركة الوهابية لهذه الأمور وتفقيه الناس بها. وكان الملك يعد هذه الأمور من واجباته الأساسية مع الفقهاء والعلماء. وبالأمس القريب جمع أهل المشورة لدراسة أوامر ملكية وإقرارها بشأن إغلاق كل المتاجر والمقاهي والمطاعم عند رفع الأذان. وهنا يقوم أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بواجبهم لتطبيق هذا النظام. وقد دأبوا فترة طويلة على حث المتقاعسين للصلاة في المساجد، وكان إصدار مثل هذه الأوامر ضرورة بسبب بعض التلكؤ الذي تسرب إلى سلوك العامة مع مرور الوقت بسبب التقدم الاقتصادي الذي طرأ على حياة الناس وتحسن الظروف المعيشية.

وفي الرياض، وأنموذج المحافظة والنظام، أصبحت الجموع تتواجد خارج المسجد أثناء أوقات الصلاة بدلاً من التسارع إلى المساجد، كما كان عليه الحال أيام الحركة الوهابية. وربما كان لتواجد العناصر الأجنبية أثرهم في ذلك، غير أن بعض المهتمين يرون أن الحركة والحياة الدينية لا تزال كما كانت عليه في مناطق القصيم والمناطق الأخرى، دون أن تشوبها أية مؤثرات. أما الملك شخصياً فما ألا جهداً في الاهتمام بالأمور الرئيسة والمواظبة على أوقاتها.

وفي الصيف خلال إقامته في الطائف كان الملك يقوم بجولة بالسيارة قبيل المغرب بنحو ساعة إلى الوديان المجاورة فتفرش النمارق وتقدم القهوة ويتم الحديث عن كل شيء يروق للجميع، ثم تقدم الفاكهة الموسمية مثل: العنب والرمان والسفرجل والتين الشوكي ونحو ذلك، ونلحظ الشمس حتى تختفي وراء الجبال ثم يراقبها المؤذن أو أحد الحراس والساعة في يده، حتى تغيب. عندها يرفع المؤذن بصوته الرخيم الأذان ثم نصطف في صفين أو أكثر، حسب عدد الأفراد، والملك في وسط الصف الأول، ويتقدم الإمام "سووا صفوفكم – سووا صفوفكم" ثم ينظر يمنةً ويسرة ثم يصلي بالناس. ويؤم الحضور ثم تنتهي الصلاة ويتسنن الجميع على سنة الرسول ﷺ. وكانت سنن الملك طويلة الركعات ونحن نتحدث في أمور شتى حتى ينتهي الملك من صلاته ثم تأتي السيارات لتعود بنا إلى القصر حيث يدخل الملك سكنه الخاص ونظل نحن مجتمعين لساعة أو ساعتين قبل أن نأوي إلى مساكننا استعداداً للخطوة القادمة.

عند الساعة التاسعة مساءً نذهب للقصر للجلسة المسائية في غرفة الحضور بالطابق الأول بقصر شبرا الذي كان يسكنه الملك آنذاك، وهو قصر من الرخام الفاخر، وكان قد تم بناؤه للشريف علي الذي خلف الأمير حسين (وبعدها صار الملك حسين) بن علي أمير مكة تحت الحكم التركي، وكان قد جلب معماريين إيطاليين وسمى القصر بشبرا تيمناً بالقصر الذي سكنه الشريف في القاهرة أثناء فترة نفيه إلى هناك، والطوابق الثلاثة من القصر على شكل تقاطع، تشكل أجنحتها ممرات واسعة تعبر بعضها البعض عند زاوية قائمة، وبكل جناح غرفة كبيرة وغرف أخرى متصلة، وكل مربوع من القصر

يمثل شقة متكاملة بما يفي بمتطلبات تعدد الزوجات. إن الطابق العلوي وسطح المبنى قد خصصت لسيدات البلاط. أما صالة الاستقبال ومكاتب الحكومة فقد احتلت الطابق الأول. وبقي الطابق الأرضي، الذي يقوم على قاعدة يقود إليها درج من الرخام، خاصًا بالخدم والحرس الملكي. وأقيم المطبخ وبعض الغرف المساعدة في مبنى مجاور أقل فخامة في الحديقة المسورة الملحقة بالقصر. ومقابل باب غرفة الحضور هناك نافذة مفروشة بالسجاد تطل على حديقة القصر وبها مقعدان وثيران واحد يجلس عليه الملك وبجانبه الهاتف وجرس للنداء، والمقعد الثاني يظل فارغًا حتى يصل ضيف عزيز من أولي الشأن يجتمع بالملك أو يجلس بجانبه للحديث.

كان أحد هؤلاء الضيوف هو الشيخ الضرير عبدالله العنقري قاضي سدير الذي قدم للزيارة وكان يبلغ آنذاك نحو الستين من العمر، وكان يبدو نشطًا وحيويًا. وكذلك عبدالله البليهد الذي قدم من حائل وهو رجل يتسم بنظرات حادة ووجه حازم، ولكن قلبه لين وعطوف. أذكر كذلك الشيخ عبدالله بن حسن، مفتي مكة الذي كان يتردد على الملك خلال زيارات قصيرة. وكان يبدو ضعيفًا للناظر ومتقدمًا في السن، وكان لا يزال نشطًا في عمله. وكان هؤلاء جميعًا أعمدة الحركة الوهابية، والآخر هو الشيخ سعد بن عتيق الذي توفي بالرياض خلال خريف هذا العام بعد أن بلغ الثمانين من العمر، وأقيمت عليه صلاة الغائب بعد صلاة الجمعة بمسجد عبدالله بن عباس حيث حضر الصلاة جمع غفير يتقدمهم الملك.

في صالة العرش وعلى امتداد ثلثي الجدران هناك مقاعد طويلة عليها وسائد ومبطنة بالقطيفة الفاخرة وتسطف كراسي الخيزران على أطراف الجدران الأخرى بينما يجلس الحراس عند الجدار الخلفي على الأرض بكامل أسلحتهم. أنذاك لم يكن أبناء الملك وأبناء إخوته وأخواته والأقارب الصغار قد منحوا حق التقدم على الآخرين بعد، بل كانوا يجلسون على كراسي الخيزران بينما حجزت المقاعد المخملية لكبار الضيوف من الأسرة المالكة والمسؤولين والزوار.

كانت مراسيم المساء تبدأ بقراءات يتلوها إمام الملك من كتب ذات صبغة دينية: مثل كتب السُنّة أو التفسير أو التأريخ، وكان يقرأ فصلين من أحد الفروع أو جزءاً من الفصول الطويلة ويُنهي الملك القراءة بقوله "بارك الله فيك" ويعني بذلك هذا يكفي. ومن يحضر متأخراً يجلس في هدوء ويستمع دون أن يحيي الملك، ولكنه ينهض على أقدامه للتحية بعد القراءة. وكانت القهوة تقدم للحضور عند مقدمهم أو خلال الفترات التي تتخلل القراءة أو كلما ضغط الملك جرساً بجانبه، وهذه ظاهرة حضارية، وقبلها كان الملك ينادي لها بصوته ويكرر صوته الحراس حتى يسمع من يقدم القهوة. وبعد القراءة يجمع الإمام كتبه وينصرف، إن لم يكن الملك قد أراد بعض المدارسة والنقاش. وكان الكلام جله للملك فيما عدا بعض همهمات الموافقة والاستحسان من الحضور حتى ينتهي الحوار حسب رغبة الملك في ذلك. ثم يغادر الضيوف المعتادين إلى ديارهم ويتبع الملك خاصته وكبار المسؤولين إلى غرفة أخرى داخل القصر حيث يدور الحديث إلى وقت متأخر، تقدم خلاله

الفاكهة للحضور. يخلد الملك للنوم وينهض قبيل الفجر ويقرأ فيما يقرأ كتاب جامع في الأقوال المأثورة والحكمة تجده دائمًا تحت وسادته ويتسلح بذلك لليوم التالي، ويقتبس من ذلك الكتاب أقوال يوردها في المناسبات المماثلة، والكتاب هو من الأوراد وهو ورده الذي يواظب عليه، وهو يماثل ما كان يُعرف في أوربا في العصور الوسطى. ثم يصلي الفجر مع الأسرة وينام ساعة أو يخلد للراحة وبعدها يستقبل الوزراء كلاً على حدة لمناقشة الأمور المهمة التي يقدمونها، وبعدها يستحم ويلبس لإدارة شؤون رعيته ككل يوم.

عند نحو الساعة التاسعة صباحًا يجلس الملك في قاعة يستقبل فيها عامة الناس، ويظل هناك لبضع ساعات، ويستقبل كل من يريد لقاءه أو من له شكوى أو استرحام أو تظلم، وأحيانًا تمتلئ الغرفة بالمتخاصمين في قضية ما، ويحضر كل الأطراف والشهود ويدور نقاش ومساءلة، وبعدها يمحص الملك الأمر ويصدر قراره، فينفض الناس بحكم أو جلسة تفاوض أخرى أو مصالحة بين الأطراف أو ينتهي الأمر بإحالة الأمر إلى المحاكم الشرعية المختصة إذا كان فيه جانب قانوني شرعي ليصدر الأمر من الكتاب.

وفي مثل هذه المناسبات، حين يتعلق الأمر بالبدو، تجد الملك في أحسن أحواله حيث يتناول الأمر بكل قلبه. ذكر متحدثًا مرة إلى شيخ من عتيبه هو عمر بن عبدالرحمن بن ربيعان قائلاً: "إن البدو لا تتغير طبيعتهم، ولكن لي طريقة معهم لم تكن معروفة لحكام الجزيرة من قبلي وقد تعلمت أن أكون صبوراً مع كل الناس؛ لذا كن صبوراً مع ربك، ومع كل عنيد، فإما تاب وعاد إلى رشده أو كشف عن وجهه الحقيقي، فتحسمه نهائيًا وللأبد... هناك

أمران لا أستطيع معهما صبراً: أمر المارق على الجماعة، وأمر من يدين لي بالولاء ظاهراً ويبطن لي خلاف ذلك". وفي إحدى المرات وقعت بعض المتاعب من قبائل بني شهر جنوبي الطائف التي أظهرت بعض المشاكل والتهديد الأمني لعدة سنوات مضت، وأدخل على الملك ثمانية من شيوخهم ليستمع الملك إلى طلباتهم واحتجاجهم، ويقول فيها كلمته، وبعد أن سمع منهم قال: "أنتم تقولون إن كل قبائلكم تؤيد مطالبكم وما أقوله لكم في صالحكم... حسناً ادعوا كل القبائل لديكم لقبول مطالبكم فإن استجابوا كان ذلك خيراً وإن أعرضوا فإني على استعداد للتعامل مع الأمر. لقد حاولت طويلاً إخضاعكم وهذا ما سأفعله. والآن أقدم هذا النصح لمصلحتكم وعليكم اتخاذ قراركم. لماذا دانت كل القبائل من وادي السرحان حتى حدود اليمن ومن الخليج العربي إلى البحر الأحمر، إلا أنتم ما لم أعاملكم بطريقة مختلفة عن الباقين؟" وعندها تدخل عبدالله بن عسكر حاكم أبها الذي زار الطائف لذا الغرض قائلاً: إنه طلب من قبائل بني شهر قبول شروط الملك. وعندها قال الملك "دعهم يقبلوها بإرادتهم ويحضروا لي عقد ولائهم وطاعتهم مختوماً وموقعاً من قبل كل الشيوخ والعشائر أو يرفضوها ويستعدوا لتحمل العواقب". وكان قد تقرر إيفاد شيخين تحوطاً للتفاوض. ولكن الملك أسرع بقوله مبتسماً: "لدي ضيوف عديدون من مختلف أنحاء الجزيرة: الرشايدة والأشراف وبني عائض وآخرين" وانصرف الجمع.

وبعد أن تنفض جلسة الصباح يذهب الملك للمكتب السياسي الذي كان يرأسه يوسف ياسين. ويظل هناك لنصف ساعة قبل أن يعود لجناحه

الخاص للقيلولة. وفي هذا المكتب يوقع الأوراق ويقرر في الأمور المطروحة ويتشاور في الأمور والأعمال ذات العلاقة. وقد يجد من الوقت ما يسمح بحديث ويناقش طويلاً في شتى الأمور، من تحسين الاتصالات وإنشاء قوة جوية إلى أمور تتعلق بالمرأة. وإذا أراد الملك مناقشة أمر سري خلال هذه الجلسات طلب لقاء شخص ما في غرفة جانبية. وعادة يصرح برغباته بشكل علني حيث يقول: "أريد كذا... وكذا".

كانت المملكة آنذاك فتية وناشئة، ولكنها كانت تتطلع برؤى واسعة نحو المستقبل وبتفاؤل تولد عن الماضي التليد والأمل في مستقبل اقتصادي ظهرت عاصفته الاقتصادية، وكان قد تم عمل اللازم مع الحكومة البريطانية لشراء أربعة طائرات دي إتش – ٩ (D. H. 9) وتقرر التعاقد مع فريق بريطاني للتشغيل والصيانة. وصل هؤلاء إلى جدة في منتصف سبتمبر، وفي يوم ١٨ من الشهر نفسه اجتمع الملك والأمراء وكبار المسؤولين والجماهير الغفيرة بالمطار قرب الطائف في انتظار وصول الطائرات التي ستهبط هناك لأول مرة منذ عام ١٩٢٤م حين هبط الطيار الروسي بوبروف الذي كان في خدمة الملك حسين والذي بعثه الملك حسين للمساهمة في إخماد ثورة الوهابيين هناك، ولكن لقي حتفه بمجرد هبوطه من الطائرة إذ كان الوهابيون قد احتلوا الطائف مسبقًا. هبط الطيارون البريطانيون الثلاثة بصورة جيدة رغم شكواهم من صغر المدرج وقساوة أرض المطار الذي استبدل لاحقًا بمطار جيد يبعد عن المدينة سبعة عشر كيلو مترًا. واستقبلهم الملك استقبالاً رائعًا في الصالة التي أُعدت خصيصًا لذلك، واستقبلهم ثانية بالقصر بحفاوة قبل عودتهم إلى

جدة بعد يومين. وكانوا قد اصطحبوا الأمراء في عدة جولات بطائراتهم، وشكلت زيارة الطائرات ودخولها المملكة العتبة الأولى نحو عالم الطيران الذي تطور واتسع فيما بعد، وأصبح سمة مميزة فتحت أبواب المساهمة لتطوير الطيران الملكي السعودي.

قبل ذلك بأسابيع قليلة زار الملك جدة لاستقبال سفينة بولندية محملة بالأسلحة من مدافع ورشاشات من وارسو كان قد تم طلبها من قبل خالد القرقني، وهو لاجئي طرابلسي، يعمل لدى الحكومة السعودية ومعه آخر يدعى حسن وفقي، شريف سوري، كان قد زار بولندا بعد أن أجرى مباحثات في جدة في الشتاء الماضي مع ممثل بولندا وآخرين برئاسة الكونت راز نبسكي ومفتي بولندا المسلم. وقرر الملك قضاء بعض الوقت في جدة لمعاينة الأسلحة الواردة ولكنه عاد إلى الطائف بعد ستين ساعة من مغادرتها، وكان الجمع قد قاسى من جو جدة الرطب الحار الذي اشتهرت به في الصيف واكتفى الملك بفحص الأسلحة قبل عودته إلى الطائف. وفي طريق العودة زار الملك خزان الماء في ضاحية الشهداء في مكة للتخفيف من وطأة الحرارة وحين سألته عن درجة الحرارة ومقدارها أجابني بأنه لا يعرف هذه الأمور، فقد تبلغ ٦٠٠٠ درجة، وهو لا يحب الحر على أية حال رغم أنه كان يقول أن طقس الطائف لا يعجبه والأمر ربما يتعلق بالارتفاع، إذ إن تأثير الارتفاع لا يكون مريحًا للأشخاص الذين اعتادوا على العيش في المناطق السهلية. وكان الملك إذا استخدم الطائرات طلب الطيران بانخفاض آمن قدر المستطاع. وقد اعتاد على الطيران الكثير من الأمراء وإن كان بعضهم لا يحب الطيران. أما معظم

الأميرات فلا يحبذن استخدام الطائرات. وثمة مشروع آخر كان قد جذب اهتمامي وهو مشروع لشركة ماركوني التي كانت شركتي في الشرقية تمثلها. وكان المشروع خاص بإنشاء شبكة اتصالات لا سلكية لكل أنحاء المملكة بمحطتين رئيسيتين في مكة والرياض ومحطات فرعية في كل المحافظات، مع أجهزة نقالة لاستخدام الملك وبعض كبار المسؤولين. وكان هناك عرض آخر أعلى تكلفة دعمه بعض المسؤولين ودارت مفاوضات مطوَّلة، انتهت إلى إرساء العقد علينا. وخلال عامين تم تركيب الشبكة وكل الأجهزة التي لا تزال تعمل حتى الآن، وقد توسعت الشبكة الأم بتعاون من الأمريكان تم خلال الحرب العالمية الثانية.

هذه بعض الأمور، وقليل من كثير من الأمور المهمة، التي شغلت ذهن الملك في تلك الفترة في الجلسات العامة أو جلساته الخاصة. وكان يناقشها دائمًا حسب الحالة الذهنية بين عدة أمور أخرى كان من بينها قضايا المرأة ووضعها وجميع شؤونها.

إن شيوخ اليوم كانوا في تلك الأيام شبانًا يتسمون بالشهامة ويعيرون الأسرة والمرأة كل اهتمام ويحسنون معاملتها في شتى المجالات ويناقشون أمورها على ضوء الشريعة السمحاء. وكانت العلاقة دون روابط الزواج أمرًا مشينًا ومحرمًا يعاقب عليه مرتكبه بأقصى العقوبات. وكانت عقوبة الجلد والتوبيخ للأمور شبه الصغائر. وعلى كل حال كانت المرأة آنذاك في مكانها الصحيح، تتمتع بكل الحقوق. قال الملك ذات مرة: "على المرأة أن تقرأ القرآن والسنة، ولكن قراءة كل ما يكتب فأمر لا يليق بها، وإن كنت لا أرفضه ولم

يكن يحرم على المرأة أن تأكل مع زوجها ومحارمها"؛ ولكن الملك ذكر بأنه لم ير امرأة تأكل في حضرته البتة أو حتى ترشف شايًا أو قهوة بالرغم من لقائه بهن كعائلة مالكة، كما يلتقي بالرجال. ولكنه لم يكن يحب لقاء النساء أو الجلوس معهن بالرغم من مقابلته لنساء الدبلوماسيين الأوربيات ونساء الزائرين، والأميرة أليس أميرة آثلون هي المرأة الوحيدة، بل الأولى التي كان لها شرف حضور وليمة ملكية. وكان ذلك إبان زيارتها للمملكة مع زوجها في ربيع ١٩٣٨م حيث تشرفت هي وزوجتي والسيدة رندل بعبور جزيرة العرب من البحر إلى البحر.

إن من تعاليم الإسلام، وخاصة على مذهب الوهابيين معاملة الزوج لزوجاته بالعدل والقسطاس في كل شيء خاصة القسمة في الوقت والمبيت. وقد شمل هذا حتى الملك نفسه؛ ولكنه على سنة الرسول ﷺ، كان يقضي بعض وقته منشغلاً بأمور الحكم. وعلى سنة الإسلام، لم يحدث أن تجاوز أربعة زوجات في وقت واحد.

وبسبب الظروف الاقتصادية هناك اتجاه منذ فترة وجيزة لدى بعض العرب للسير على نهج الغرب باتخاذ زوجة واحدة. ولكن في المملكة لا يزال البعض يرى غير ذلك، غير أن تأثيرات الحياة الغربية ستعمل في القريب على تغيير نمط حياتهم كما حدث في البلاد العربية على حدود أوروبا. إن نتائج هذه التأثيرات الغربية قد لا تكون إيجابية بالنسبة للمملكة، وإن كان البعض يعد ذلك سيراً على طريق الحضارة.

هذه الأمور لم تكن مواضيع يتم تناولها في بلاط الملك في الثلاثينيات من هذا القرن، حيث سيطر نظام الملكية سيطرة تامة على المملكة وأصبح التاريخ يسطر بأحرف من الذهب والنفط. وقد أبدى الملك في خريف هذا العام في الطائف ترحيبه بزيارة المستر تشارلز كرين إلى جدة لمناقشة بعض الأمور الاقتصادية مع الملك ووزرائه. إن هذه الزيارة التي حدثت في مارس ١٩٣١م سوف أرجئ مناقشتها إلى فصل لاحق.

وكان من عادة الملك تناول كل وجباته في داره بالقصر وليس في بيوت زوجاته ما لم يكن ضيفًا على إحداهن في بعض المناسبات. وذكر أنه في ذات مرة زار إحداهن ووجد عندها عنبًا ممتازًا لم يتوفر له، وسأل عن ذلك وقيل له إنه أحد خدام الزوجة أحضره من بستان يعرفه، عندها قال الملك: "من أين؟ إنني أريد شراء ذلك البستان" وصاحت زوجته "لا تفعل ذلك؛ لأن صاحبه لا يريد بيعه"، فضغط عليها لتكشف سر البستان فقالت: "إنه من بستان كذا وكذا وهو ملك لك".

وفي مرة أخرى جرى نقاش حول تأخر زواج الشباب في الحجاز بسبب الأعباء الاقتصادية، وبسبب غلاء المهور وارتفاعها التي يطلبها آباء البنات. وعندما سمع الملك ذلك وجه رئيس المجلس الملكي، وهو نجدي سكن لفترة طويلة بالحجاز، لدراسة أمر تكاليف الزواج في الأراضي المقدسة وإعطاء الاعتبار لهذا الأمر، وتوجيه الشباب نحو الزواج المبكر منعًا للفساد.

هذه نماذج من حديث الملك الرسمي وغير الرسمي مما يجري في جلساته في الطائف في تلك الأيام. عند الظهيرة بعد الصلاة، التي يحضرها الوزراء والمسؤولين والخدم والحرس، يذهب الملك إلى زوجاته للغداء ثم غفوة ما بعد الظهيرة وينصرف الجميع إلى بيوتهم. وبعد صلاة العصر تنعقد جلسه عامة يشارك فيها جميع الحضور وبعض الزوار يُقدم الطعام لمن يريده مبكراً كعادة نجد، ثم يعود الملك لداره لتناول الغداء والاستعداد لصلاة المغرب. وأحياناً يقوم الملك ومن معه من خاصته بجولة في البرية حيث نجلس على السجاد في إحدى الوديان نتناول القهوة والغداء ونتحدث عن كل شيء على وجه البسيطة؛ وأطفال الملك يلعبون حولنا حيث كان بعضهم يخرج مع الملك في مثل هذه الرحلات في سيارته، فيلعبون والكبار يراقبونهم. كان هنالك دوماً جراب بجانب الملك يحوي عملات ذهبية وفضية للفقراء والمساكين الذين قد يلاقيهم، حيث يرمي بها الملك على السجاد، فيقوم أولئك بتخاطفها، ويشارك الحضور التقاط النقود والبعض لا يشارك. ثم تفرش قماشة سفرة على السجاد وتملأ بفاكهة الموسم فيناولها رفاق الملك، ثم يسير الحال على هذا المنوال حتى تغيب الشمس خلف الجبال لتعلن ميلاد يوم جديد يبدأ بالآذان الذي يقوم به المؤذن أو أحد أفراد الحاشية. وفي رحلة العودة نجد النساء والأطفال وقد اصطفوا على الطريق، والنساء كالعادة ملثمات بالحجاب والرجال والمعاقين من المدينة والقرى المجاورة كلهم ينتظرون مكرمة من الملك. ويكون بجوار الملك أحد حراسه من الخدم يقف على جانب السيارة متأهباً وعند إبطاء السيارة يقفز منها ويستلم كيس النقود من يد الملك ويوزع ما فيه

للمصطفين ويسير الركب نحو القصر ويبدأ يوم جديد بالصلاة وينتهي بالتصدق على الفقراء وهما، أي الصلاة والزكاة، من أركان الإسلام. لقد بدأ الأمر هكذا ويظل هكذا. وقد تختلف تفاصيل اليوم في البلاط الملكي، إلا أن الغالب العام يبقى كما هو على نهج الإسلام والسلف. وظل الحال هكذا قرابة الخمسين عاماً في عالم ساد فيه الخوف والشك. وتلك هي بعض مناحي حياة رجل عظيم.

صاحب الجلالة الملك عبد العزيز في الذكرى العربية، عام ١٩٥٠م.

صاحب الجلالة الملك وأفراد أسرته في الرياض، عام ١٩١٨م.

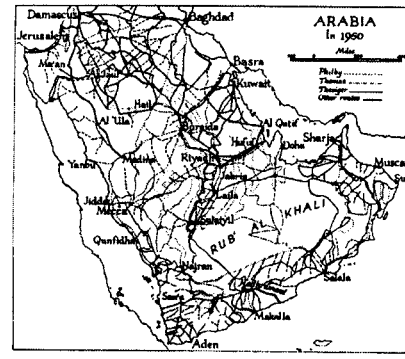

الشيخ يوسف ياسين في حديقة بلدية مكة، عام ١٩٣٥م.

عبد الله السعدون وبعض الزوار في خيمة ولي العهد، عام ١٩٣٣م.

صاحب السمو الملكي الأمير سعود وأخيه فهد في بريدة، عام ١٩١٨م.

صاحب السمو الملكي الأمير سعود، ولي العهد، عام ١٩٤٨م.

صاحب الجلالة يتفقد منجماً في وادي شريف، عام ١٩٣٨م.

صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد في المخيم، عام ١٩٣٣م.

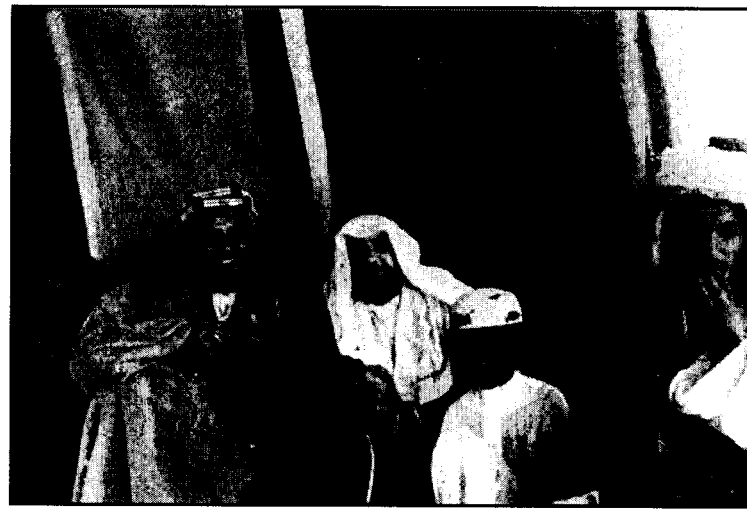

الكاتب مع بندر الدويش، وفهد ابن ولي العهد، عام ١٩٣٣م.

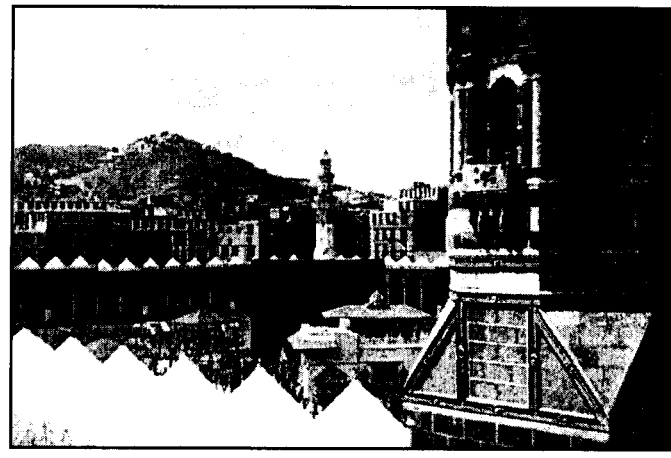

الكعبة والحرم الشريف في مكة، عام ١٩٣٣م.

صاحب السمو الملكي الأمير مشعل، ابن الملك وإحدى الأميرات الصغار، الرياض عام ١٩٤٧م.

صاحب السمو الملكي الأمير تركي، أكبر أبناء الملك في بريدة، عام ١٩١٨م.

صاحب السمو الملكي الأمير فيصل، وزير الخارجية ونائب الملك على الحجاز مع عبدالله الدملوجي وفؤاد حمزة، عام ١٩٢٩م.

الأمير عبد الله بن جلوي والعاملين معه في الهفوف، عام ١٩١٧م.

الشيخ فؤاد حمزة في مكة، عام ١٩٣٢م.

أحمد الغزاوي، شاعر البلاط، عام ١٩٤٦م.

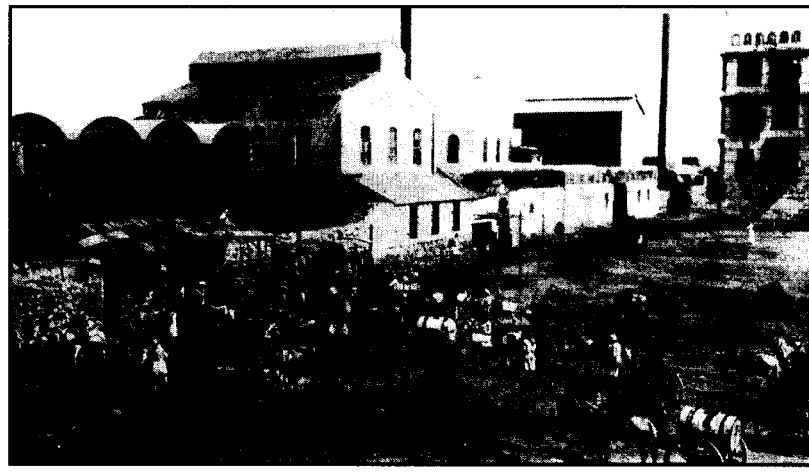

مرشح المياه (الكنداسة) في جدة، عام ١٩٤٦م.

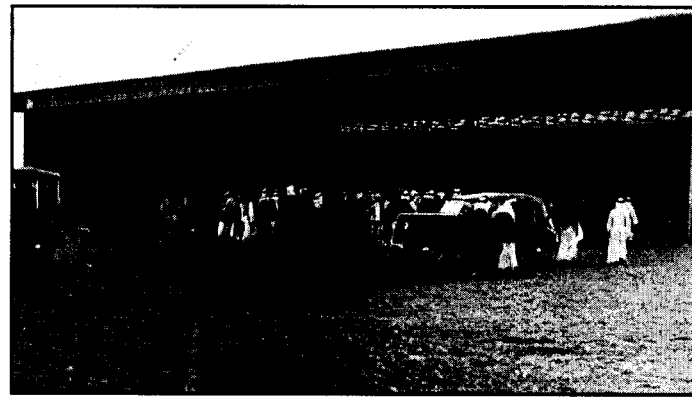

حظائر الطائرات في مطار جدة، عام ١٩٤٨م.

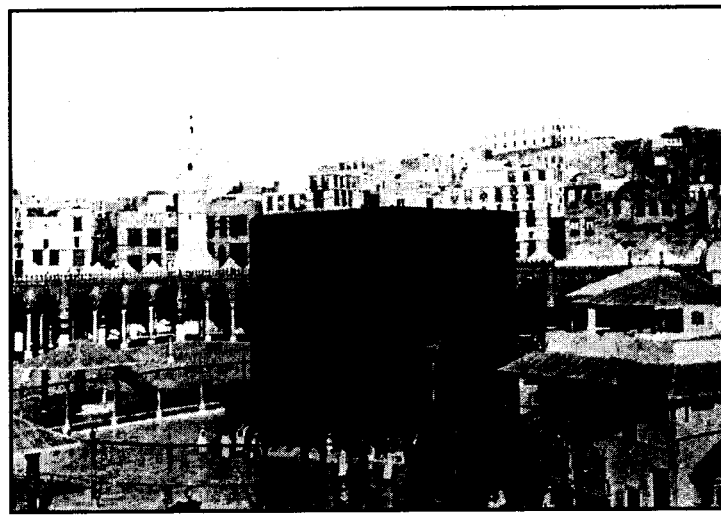

الكعبة والحرم الشريف في مكة، عام ١٩٤٥م.

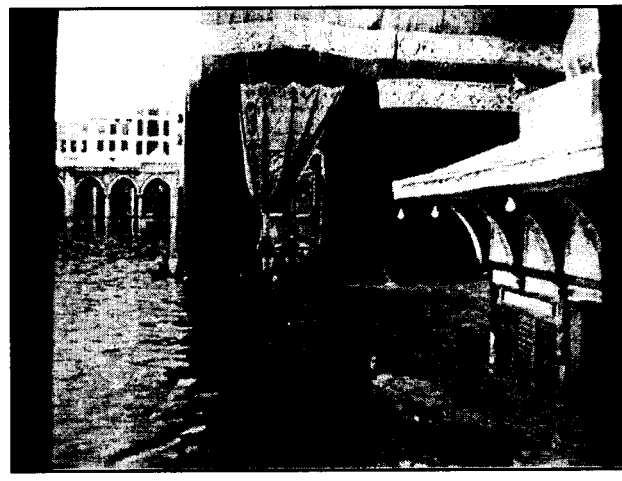

الكعبة والحرم الشريف في مكة خلال سيل عام ١٩٥٠م.

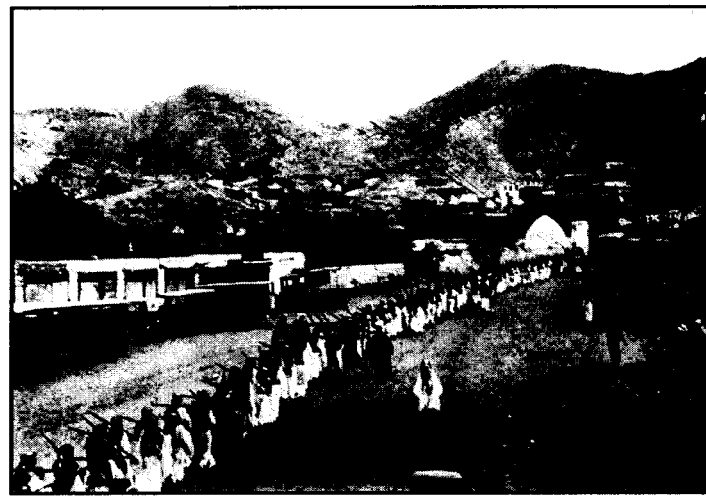

قوات عسكرية في طريقها إلى الحرم الشريف في مكة لأداء صلاة الجمعة، عام ١٩٣٨م.

قوات عسكرية تحمي صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز عند وصوله لأداء صلاة الجمعة، عام ١٩٣٧م.

الشارع الرئيس في مكة، ويبدو الحرم الشريف إلى اليمين ومركز الشرطة إلى اليسار، عام ١٩٣٤م.

رقصة الحرب تؤديها قبيلة حرب في مكة، عام ١٩٣١م.

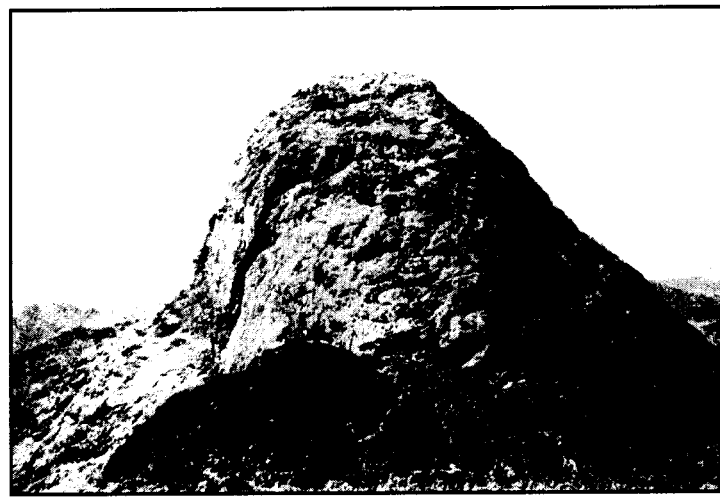

جبل النور في مكة، مهبط الوحي.

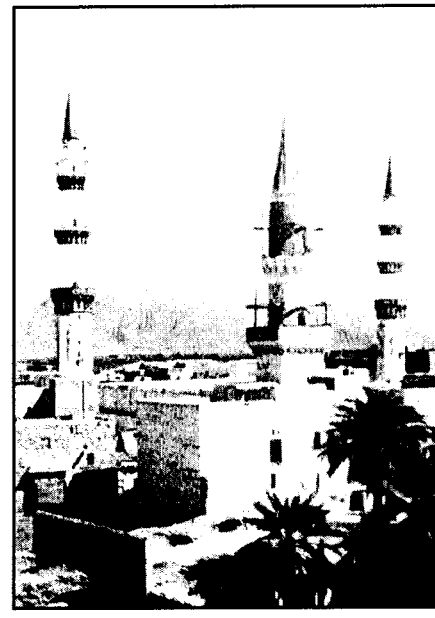

مآذن المسجد النبوي في المدينة المنورة، عام ١٩٣٨م.

قرية ثرمداء، عام ١٩١٨م.

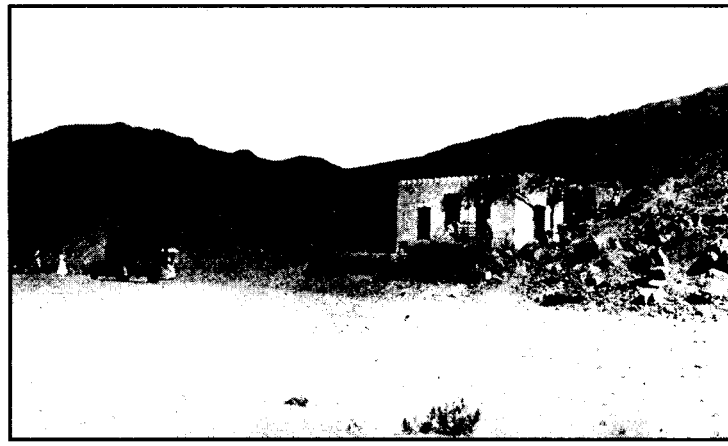

مسجد في طريق المدينة، عام ١٩٣١م.

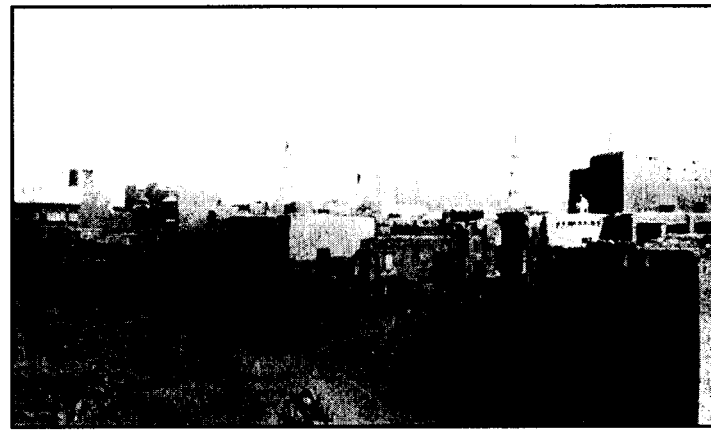

المسجد النبوي في المدينة، عام ١٩٣٨م.

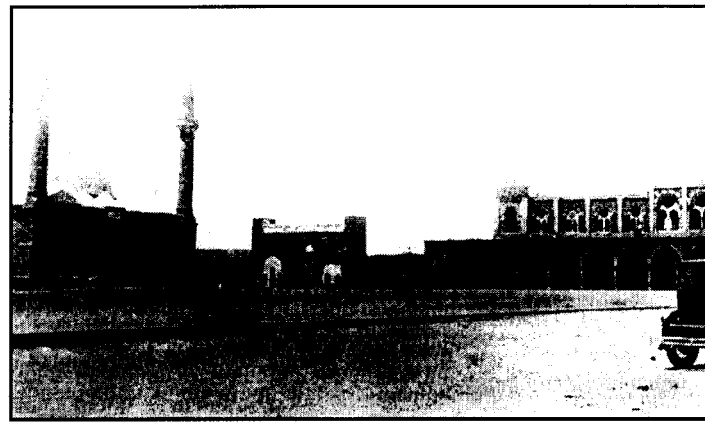

محطة السكة الحديد ومسجد العنبرية في المدينة، عام ١٩٣٨م.

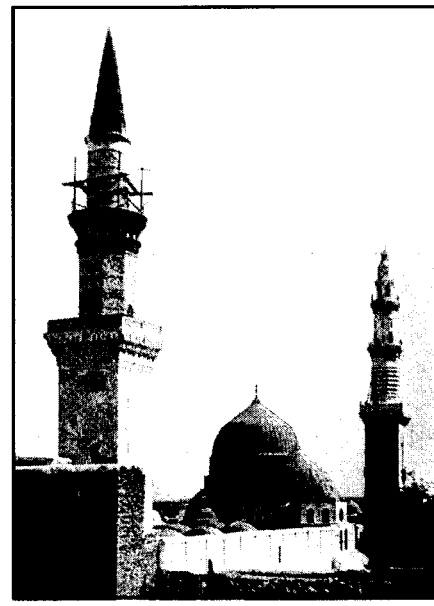

قبة الروضة النبوية الشريفة واثنان من مآذن المسجد، عام ١٩٣٨م.

الشارع الرئيس في منى خلال موسم حج عام ١٩٤٥م.

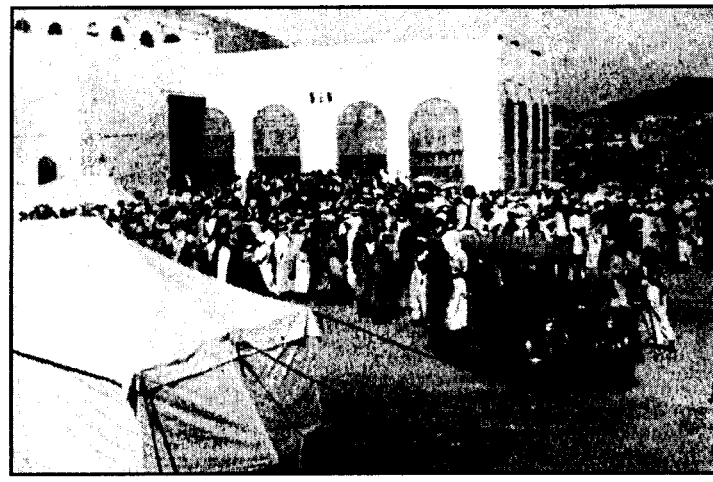

احتفال الحجيج أمام قصر الملك في منى، عام ١٩٤٥م.

قصر الملك في منى خلال موسم حج عام ١٩٤٥م.

حجيج من نجد يقفون على عرفات خلال موسم حج عام ١٩٣١م.

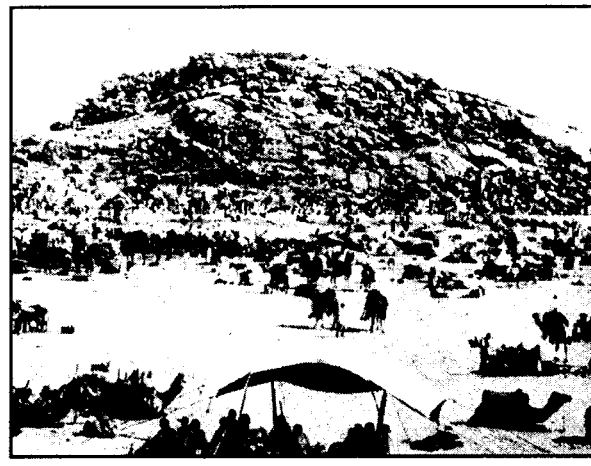

جبل الرحمة في سهل عرفات خلال موسم حج عام ١٩٣٨م.

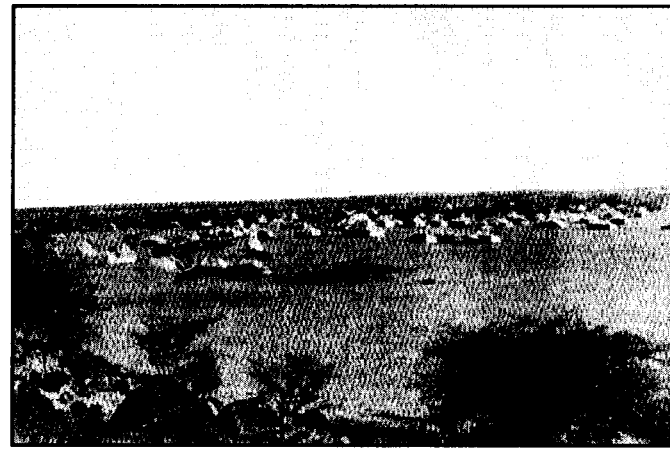

مخيم الملك في عشيرة، عام ١٩٣٦م.

قصر الملك في الطائف، عام ١٩٣٠م.

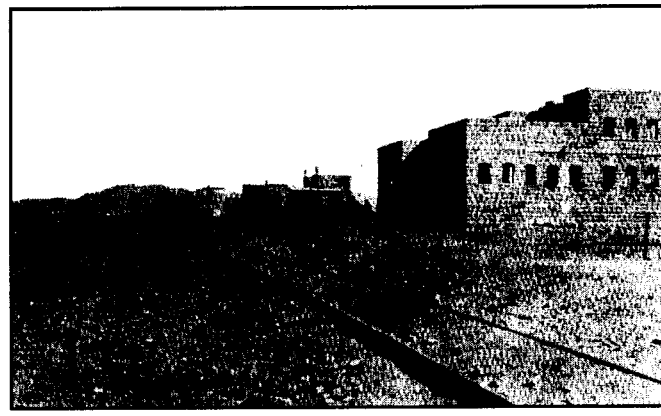

محطة البوير على خط سكة حديد الحجاز، عام ١٩٣١م.

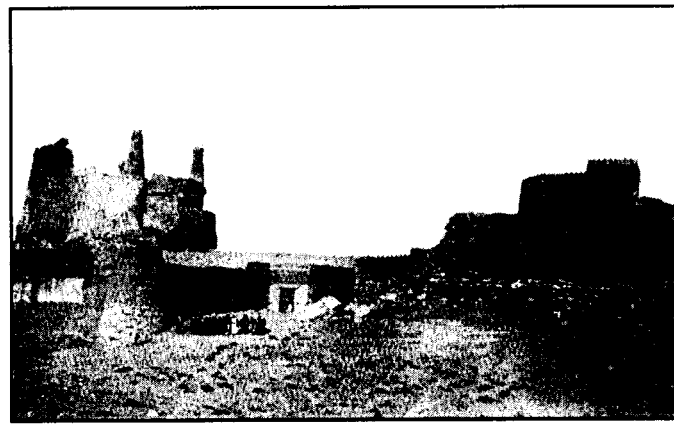

قصر مارد في الجوف، عام ١٩٢٢م.

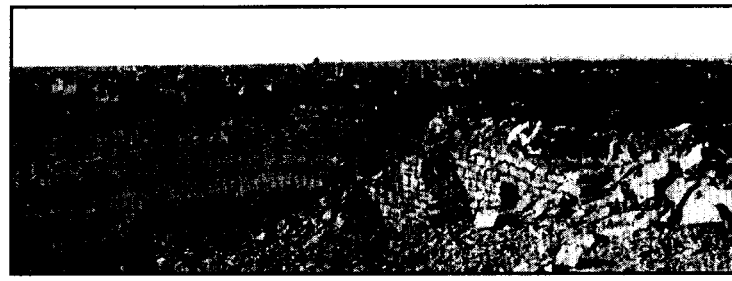

أطلال الدرعية، عاصمة الدولة السعودية، عام ١٩١٧م.

أطلال الدرعية، عام ١٩٤٧م.

سور مدينة الرياض، عام ١٩٣١م.

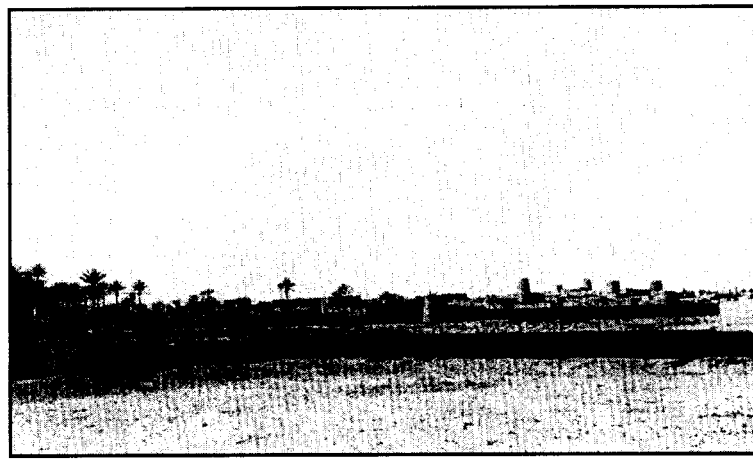

أبراج قصر المصمك، عام ١٩٣١م.

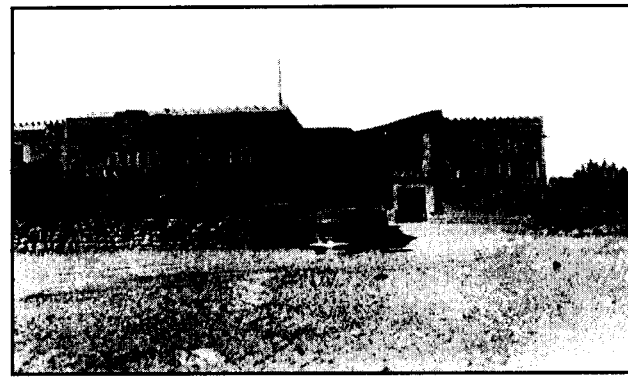

قصر البديعة في الرياض، عام ١٩٣٥م.

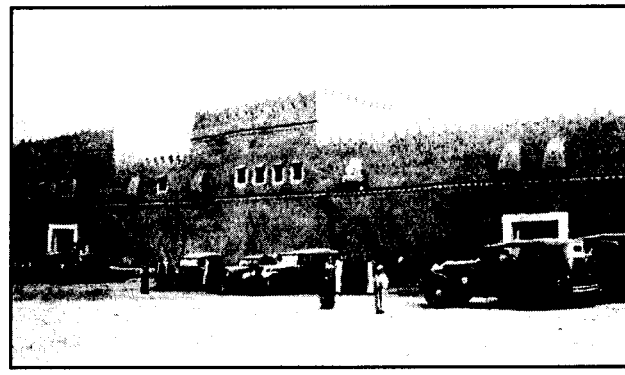

قصر الأمير محمد، أخ الملك، في عتيقة بالرياض، عام ١٩٣٨م.

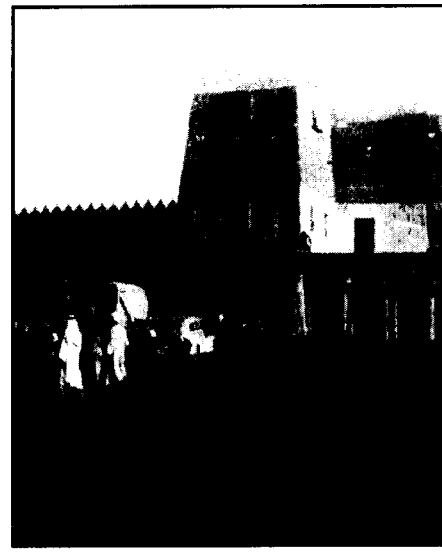

قصر الحاكم في حايل، عام ١٩٣٥م.

قصر الملك في الرياض، خلال إجراء بعض الترميمات، عام ١٩٤٩م.